٩ ـ أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

استجابة

أعود إلى الكتابة تحت هذا العنوان استجابة لنداء الحياة ونداء النفس ؛ فقد نادتنى الحياة الانسانية الراهنة الزاخرة إلى الايمان به وبمستقبله برغم إثمه وشره فى عصره هذا ، وحملتنى على ذلك بنبوتها ومعجزاتها . والحياة المدنية الحالية نبوة ! نبوة شيوعية ... أخذت جميع أمم الأرض بمعجزاتها وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة . فلتعرفها على حقيقتها . ولتعلم أنها باب الملكوت الذى وعدت به رسالات الشرق الأولى التى وجهت الانسانية

إنها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائق الأشياء وبراهينها ... لا نبوة الارشاد والترغيب والكلام الذى ألقاه الرجال الآباء فى سمع الانسانية وهى فى أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والاخلاص وسمو النظرة إلى الانسان فى حياته هنا وفى مصيره هناك ... وهى صفات لا بد منها فى المهود والمدارج ...

فان أنا لم أستجب لنداء هذه الحياة بالجسم الخفيف السريع ، والفكر اللطيف الهاج الحاذق الفطن لأسرارها ، الواعى لخطرها وقيمها ، العارف باتجاهات قافلتها ... كنت من المتخلفين البلداء الكافرين بنعمة الله ! وقد فى هذه الحياة المدنية الحالية نعم جليلة لا يكدرها إلا عنف وحماقة وطيش من بنيها

وقد نادتنى النفس التى حاولت جهدى أن أحفظ لها حدودها وطابع عالمها الخاص وألا أسمح بطغيان الجسد عليها طغيانا يجعلها تذهل عن ذاتها وتخلط بين معدنها الخاص والمعادن الأرضية إلى الايمان بها كذلك ، وحملتنى على ذلك بما كشفته لى من آفاقها الخاصة التى لا دخل التحليل البيولوجى والفسيولوجى فيها

وكنت حريا — وأنا أطلب الحق — أن أستمع للنداءين فأوفق بين نداء النفس ونداء الحياة ، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على النفس وحدها ولم يزاوجوا بينهما

إنتقال أسرار الطبيعة إلى الفكر — خليفة القهار — إدراك المادة ثم النفس ثم الله — لا عمق فى العالم المادى — الفكر مجال مؤقت ومجال منتظر — باب مفتوح وباب مغلق — مضى عهد مضغ الكلام — لا سدود أمام الانسان — الطبيعة هى الحكم فيما يمكن وما يستحيل — تربية تعلم غزو الطبيعة — الطبيعة المطيعة — عصر الاحساس بقدرة الفكر — أسئلة يجب ترديدها دائما

ألقت الطبيعة أكثر صورها إلى فكر الإنسان ، وانتقل إلى ذهنه جانب كبير من أسرارها وقوانينها ، فصار يقلدها ويصنع فى موادها ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحريك ، ويسلط بعضها على بعض ، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين والتخريب فيها ...

وقد بنى أساس هذا التقليد على قواعدها الكلية ، وبقى التنويع والتفريع الذى لا ينتهى فى الجزئيات والأشكال

وقد وصلت يده إلى منابعها وموادها الأولية : فهو يبحث الآن فى الذرّة والكهرب والأثير ، ليعرف المبادئ الأولى للمادة والقوة والدفعة الأولى التى ابتعثتهما ودفعتهما ...

فما ذا ينتظر الإنسان بعد فراغه من هذا التسلط ؟ وما هى النتائج ؟ أهى المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية ؟ إن هذه نتائج لا تتلاءم مع عالم فكره العالى ، ولا يصح أن تكون أهدافاً لهذه الصرامة والجد العظيم الذى تسير به الحياة وقوانينها فى خدمته ... وإن للمغالبة والمنافسة والشهوة بأساليبها المعروفة الوضيعة ، ينبغى أن تكون غير ذات خطر عنده ، بعد أن عرف آفاقاً جديدة لشهوات رفيعة ، وهى تحقيق أحلامه فى الكشوف العلمية والانطلاق السريع بالطيران والسبح والسبق وإزالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية ، وغير ذلك من طلائع مجده وملكوته المرتقب !

إن الله قاهر فوق الطبيعة ، وهو يدرب « خليفته » فى الأرض على التغلب على العقبات التى تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة من قيود المواد الثقيلة . والله أنشأه فى الضرورات والآلام ليفتق هو الحيلة للخلاص منها ، ويكمل وسائل السيطرة الذاتية على المادة ؛ وإذا اطرد السير على منهاج تاريخه الذى عرفناه ، فسوف يتغلب على كل شيء

إن فكر الإنسان قانون ينمو ويتدرج غير واقف عند حد ؛ وقوانين الطبيعة صارمة جامدة متحجرة . ونموه فى ذاته يجعل الطبيعة نامية به . ألا ترى ما يستحدثه فيها من المعجبات التى لا تنتهى ؟

وأرجو أن يفهم هذا القول فهماً عميقاً ، لأننا إذا فهمنا فكر الإنسان على هذا ، أدركنا موضعه ورسالته فى الوجود ، وأحللناه محلاً رفيعاً يدفعه إلى العمل والسير فى منهج محدد واضح ، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائماً بقوانين تحفظه من الارتداد والضلال ، ونتدرج به حتى نستوعب كل مباحث المواد والقوى ، ونستخرج به أسرارها الكامنة ، ونتنقل به نقلة تسلمنا إلى الوقوف على عتبات عالم آخر ، لعله أن يكون عالم النفس ...

وإن إدراك النفس لا يتأتى إلا بعد إدراكنا ما فى الكون المادى ؛ وهذا هو سر قلقها ونبشها فى الطبيعة وعدم رضاها عن ركن واحد منها ؛ وكلما أخذت من الطبيعة سراً ، أحست أنها

تقترب به إلى إدراك ذاتها الجزئية ، لتدرك من وراء ذلك علماً من الروح الأكبر !

أجل . إن إدراك الكون لا بد منه لإدراك النفس ، إذ أن الفكر يرى كل عمق فى الحياة المادية يسير ضحلاً بعد ترديد النظر عليه واستيعابه بالإدراك . وطبيعى أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية ؛ وأن ترى آفاق الحياة المادية عددية لا أكثر وليس لها عمق ولا نهائية ؛ فهى فى موجودات الطبيعة ومستحدثات الإنسان لا تتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العناصر التى تزيد قليلاً على التضعيف

وما يخيل إلى البعض من أن هناك أعماقاً وأغواراً لا تنتهى فى المادة إنما هو صورة مما يحدث للناظر إلى لوحة فنية بارعة ذات صنعة موحية مثيرة للشعور باللانهائية . حتى إذا ما كشط سطحها قليلاً تذكر أنها ليست أكثر من تمويه وتخييل وبراعة فى بسط الأصباغ والأضواء والظلال وقبضها ، وتكشف له السطح الزاخر باللانهائية عن باطن محدود لا يتعدى ألوان الطيف السبعة !

إن الإنسان لم يعد يؤله الماء والنار والهواء والتراب ويفرغ عليها أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها فى ذهنه قديماً ، بعد أن حلل عناصرها وركبها وتسلط عليها وسبر أغوارها . ولم تعد النفس العالمة التى تشرف على لجة البحر أو لجة الهواء أو أغوار التراب أو جعجعة النار ، ترى فيها أكثر من مواد وقوى عمياء محكومة بقوانين أخذتها النفس فى حوزتها وجعلتها من مدخرات فكرها ، وتستطيع أن تولد بها ناراً وهواء وماء . . .

إنى أشعر حينما أقلب بصرى فى آفاق السماء وآفاق الأرض أن فكرى لا يستطيع التعمق فيها إلى ما لا نهاية ، بل يقف عند نهايات معينة هى العناصر المحدودة التى تألفت منها مادة السماء والأرض ، والنسب الهندسية والحسابية التى قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها ؛ ثم يبدأ الإحساس بفراغ وعماء لا صور فيه ولا خواطر عنه

وطبيعى أن نظرة مثل نظرتى هذه لا يكون وراءها إحساس بخشية من الطبيعة ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين، لأن حدودها رئيت وأسرارها عرفت وصورها طبعت فى النفس، ولكن يكون وراءها إحساس بخشية ورهبة من ذلك الذى خلقها هائلة هكذا وجعلها بهذه النسب الرياضية والهندسية والقوة الغائبة الجبارة . . .

إذاً ما هو المجال الحيوى غير المحدود لهذا الفكر الإنسانى الذى يرى عمق الكون المادى ضحلاً بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه وقوانينه الهندسية والرياضية ؟

إنه لا بد عالم لا نهائى لا تدركه الأبصار والمناظير ولا تحلله المخابير ، ولا تسبر آفاقه المسابير والمعايير ، ولا تدركه علوم الزمان والمكان !

وطبيعى أن هذا المجال الحيوى بهذا الوصف لا يمكن أن يكون للفكر الإنسانى قدرة على إدراكه هنا فى هذه الدار التى نعيش فيها بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة ، والفكر المحدود

ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الإنسانى عن محاولة اقتحام هذه السبحات ويتوجه إلى المجال المحدود المؤقت الذى وضعنا فيه لندركه هو أولاً ونفرغ من استيعاب أسراره وظواهره

وإن من يريد التعمق الآن فى إدراك ما وراء الطبيعة ولا يقتنع منه باللمحات والخطفات فلن يظفر بمحصول غير الشرود والخبال

وقد برهن تاريخ الإنسان على ذلك . فالأمم التى لا تزال تطلب فى هـذا العصر علم اليقين بالنفس والله قبل إدراك قوانين العلم الطبيعى ، والتى لا تزال تطلب الله عن طريق الشعر والوجدان وحده كالهندوكيين ولا تطلبه عن طريق البحث فى أرضه وهوائه ومائه والتطلع العلمى إلى سمائه ، ولا تقتص آثار يده فى صنع نماذج الطبيعة لتعرف مقدار ما عنده من العلم والإحاطة بالجزئيات والكليات، ولا تلخص أسرار صنعته وتختزلها فى قوانين ومعادلات حسابية وجبرية ، ولا تحاكى نماذج الطبيعة ، إنما هى أمم بدائية ضالة طريق تحقيق الأوطار والأشواق إليه ، جل مجده ، قليلة العلم بما عنده من أفانين تتجدد ولا تنفد ، تعرفه عن طريق العواطف والرموز، لا عن طريق الفكر والوضوح

إن الإرادة العليا مصرة على إغلاق ما وراء الطبيعة الآن أمام فكر الإنسان ، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من إدراك كل ما فى الطبيعة أولاً

أما الطبيعة ذاتها فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة ، وعكفوا على محاريبها وأطلالها وموجوداتها يقلبون النظر والفكر واليد فيها ثم يتكلمون بعد ذلك . . .

إن الكلام وسيلة لا غاية . هو قوالب لاختزان المعانى التى تنشأ من المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة . هو أوعية

الحقائق المرفوعة من الأجسام، إلى عالم التعبير والصور والأرقام .
فلا يصح أن تعتقل بتكاذيب الأماني وتخييلات الأحلام ، إلا أن تكون تمهيداً من عالم الخيال والمثال لعالم الواقع . وكثيراً ما هدت سوانح الشعر إلى حقائق العلم ...

* * *

فلا يضمن أحد السدود النظرية أمام عمل الإنسان في الطبيعة ما دامت هي تلبيه وتتفتح له وتنتج . ولا يجوز حمله على السكون والركون إلى مواريث الأفكار القديمة التي تجعل الطبيعة أمام الإنسان حرماً مقدساً يجب التهيُّب من الشروع في تغيير شيء فيه أو تنقيحه بالزيادة أو النقصان ...

فهي وحدها الحَكَم التي تُرضي حكومته في العمل فيها أو تركه ...

فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار فليدخل وليتوغل وهو موقن بأن هذا عمله الذي خلق من أجله ... وليس إبقاء الطبيعة كما هي بدون تغيير عبادةً كما كان الزعم القديم ، ولكن صار تغيير الطبيعة إلى الأصلح هو العبادة ...

والتربية الناجحة هي التي توحي للنفس ألا تتقهقر وتتضاءل وتنزوي في نفسها أمام قوى الطبيعة ، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير سالبة ، تؤثر في الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح ... والتربية الشرقية على العموم لا تزال تؤول قصور النفس الناشئ عن الجهل والكسل والعجز أمام الطبيعة بتأويلات تحمل فيها الأقدار العليا أكثر مما تحتمل ، وتفر من وجه السدود والموانع تحت تأثير قناعة مصطنعة تحكيها أخيلة طفلية، ولا تأخذ ما في الحياة وإنما يأخذها ما في الحياة

وقد كان الاعتماد على القوى السحرية هو أساس العمل لتحقيق الأماني ؛ والآن صار الاعتماد على القوى الآلية في الطبيعة هو أساس ذلك العمل

لقد قدمت الطبيعة الطاعة أمام فكر الإنسان ؛ فهو يأخذ نواصي كثير من قواها بقوانينها هي ، وقد عرف الأبواب الخفية التي يتسلل إليها منها فأمعن في غزوها

وإن أعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبت من جبروت الطبيعة شيئاً من الهول والاجتياح والاتساع ؛ فدافع كروب الثقيلة البعيدة المرى ، والقنابل الشديدة الانفجار ، والقلاع الطائرة ، والمناطيد ، والخزانات العظيمة ، والمحطات الكبرى لتوليد الكهرباء، والمصانع الواسعة، والإذاعة المبثوثة باللاسلكي وتمهيد الطرق العظيمة كطريق نيويورك — ميامى مثلاً ، أو إكسبريس الشرق وغير أولئك ... كلها أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والجهد الجبار

ولا يتوهمن متوهم أن هناك عداوة وغيظاً وحرباً ذات حقد بين الإنسان والطبيعة ، وإنما الطبيعة صدر رحيب كصدر أم يمرح عليه أطفالها

نحن بنو الطبيعة ونتاج عواملها وتأثيراتها الظاهرة والخفية ، جسمنا منها وعقلنا وتجاربنا ، ولكن روحنا من الله بارئها ؛ ولذلك كان لنا قدرة عليها وافتتان في تنقيح موجوداتها وعما كانها والزيادة عليها... فلنبدأ عصر يقظة بالإحساس بحياتنا الممتازة، والإحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة . وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا : كيف خلقنا؟ وكيف اقتدرنا؟ وكيف نعلم؟ وكيف نعمل ؟

إن الراحة الدائمة هي في أن نلقي بأجسامنا على صدر الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين ... وبأرواحنا بين يدي ربها متعرفين إليه صابرين على الدهشة والحيرة والإيمان بالغيب حتى يأتينا اليقين في الآفاق وفي الأنفس . ولابد وراء ذلك من تأويل ويقين !

قد يطير الطير في أجواز الفضاء وهو في ذهول . . . وقد يسبح الحوت في جوف العباب وهو في ذهول ... وقد تَدْرُجُ الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهي في ذهول . . . ولكن ابن الإنسان ينبغي له أن يتساءل دائماً : كيف أحيا ؟ ! وكيف أفكر ؟ ! وكيف أدرُج ؟ ! وكيف أسبح ؟ ! وكيف أطير ؟ ! ثم كيف أريد وأقتدر ؟ !

وينبغي له ألا يغفل عن ترديد هذه الأسئلة :

ما الذي أخرج الإنسان من ركام المَوَات والجمود ومختلط القوى العمياء التي يزخر بها الكون ؟

وما الذي وضع فكر الإنسان واختياره وسط الدورات الجبرية التي تتداول الأرض ؟

وما الذي هيأ له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور وتدافع القوى العمياء ؟

إن رحلة واحدة في جوف الماء الزاخر ، أو الهواء الدافع ، أو النار الموارة، أو التراب الثقيل الفادح المتراكم... كافية أن تشير لنا إلى موضعنا وخصوصياتنا في الكون ، وإلى رعاية من أخرجنا وسط هذه الأهوال والقوى العارمة المجنونة في مهاد من رحمته بين عوامل جبروته وسطوته !

عبد المنعم محمد خلاف